﴿ فجيعة العرب بشوقي ﴾

« وإمارة شوقي على الشعراء »

— للاستاذ فارس بك الخوري —

كلنا يذكر أخبار تلك الحفلة التاريخية التي شهدها منذ بضعة أعوام في مصر القاهرة نخبة مختارة من أدباء العرب وشعرائهم وعقدوا فيها لواء إمارة الشعر لأحمد شوقي وكيف تلقت الأقطار العربية هذا النبأ بالغبطة والارتياح .

واذا كانت فئة قليلة من أعلام الأدب العربي في مصر والعراق والمهجر قد انكروا هذه البيعة وزعموا ان الرجل غير اهل للمنزلة العالية التي بوّأه إياها فريق من أصدقائه المعجبين بشعره فان القطر الشامي كان باجماع حملة الأقلام فيه موافقاً على إقامة احمد شوقي اميراً للشعراء ومقراً له بالجدارة والاستحقاق لاحتلال هذا المقام الذي لم يكن بين شعراء العصر من يجرأ ان ينازعه إياه أو يزاحمه عليه . كما كان المعارضون أنفسهم يقفون واجمين عندما يقال لهم إيتونا بمن هو أجدر منه ان كنتم صادقين .

وكأن تلك المشاغبات الخفية والأصوات الضعيفة التي كانت تسمع بين حين وحين من الناقدين الناقمين كان لها عند شوقي ما يكون لمثلها عند أصحاب النفوس الكبيرة والأخلاق النبيلة فلم يقابلها بالجدل العقيم والنقاش الذميم ، ولا تصدّى لنقد شعر خصومه ، وتفنيد مزاعمهم ، ولا عمد الى المشاحّات والمهاترات بل اتخذ من الشعر وسيلة ناجعة ليحجج المكابرين ويقنع غير القانعين بانه صاحب الحق البارز بإمارة الشعر ، فكان يطلع على الناس كل يوم برائعة جديدة من روائع قريضه ، ويقيم لهم حجة أصرح ودليلاً أوضح على انه أمير الشعراء غير منازع ولا مدافع ، يريهم غباره ويدعوهم للحاق به ، ان كانوا يرى بدون النضال حتى بلغ ماجادت به قريحته الفياضة في خمسة أعوام بعد البيعة أضعاف ما أنتجته في الأربعين عاماً قبلها . وأخذت أصوات الإنكار تخف وتتلاشى حيال تلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحملات الجبارة والكرات القهارة التي توالت بلا فاصلة وفي كل منها من نفاسة الأسلوب وبدائع الإبتكار مما لا يدع مجالاً للمكابرة والإنكار ، خرج شوقي من المعركة ظافراً وعاش هذه السنوات الأخيرة من حياته المباركة وهو متربع في دست الامارة بلا منازع مستوٍ على عرش الأدب العالي محاط بالتكريم والإجلال .

لماذا اجمع العرب في هذا العصر على تلقيب شوقي بامير الشعراء ، ولماذا خصوه به دون غيره من فحول القريض ؟

انظروا الى الشعر العربي قبل هذا العصر وما كانت اهدافه واغراضه . هل كان فيه غير المديح والرثاء والنسيب والهجاء والفخر والدعاء .

انه كاد يكون خالياً من غاية التعليم والارشاد ، وتنبيه الامة الى مواطن الضعف في عاداتها واخلاقها ، واحياء النعرة القومية في نفوس ابنائها ، وتوجيه ميول الشعب نحو الوحدة العربية واصلاح الفاسد من المناهج الاجتماعية ، وقلما تجد فيه شيئاً من الاغراض السياسية العالية الرامية لاستنكار الظلم والتحريض على الطغاة الظالمين ، ودعوة الامة للنهوض من كبوتها ، واليقظة من غفلتها ، وتذكيرها بامجادها الغابرة ، ومفاخرها العابرة . الى ان جاء عصر شوقي وهو في طليعة حملة اللواء يبعث في العرب روح الحرية ، ويدعوها الى ماهي بحاجة اليه من فك القيود ونفض غبار الجمود واعداد العدة لهذا الكفاح العمراني الصعب المراس ، فكانت قصائده السياسية والاجتماعية اشد حافز للعرب للتنبيه الى مايكاد لهم ، والاستعداد لاحباط مايراد بهم .

وكان الأدب العربي خالياً من الشعر القصصي خلواً ينكره علينا ناقدو الغرب الى ان جاء شوقي وسدّ هذه الثلمة فوضع قصة كليو بترا ومجنون ليلى وعنترة باسلوبه الرائع ، واسّن لشعراء العرب سنة حسنة رفعت الشعر العربي الى المستوى الموفور الجانب .

فلا ريب اذن ان البيعة التي احرزها شوقي بالحق والانصاف لاتنحصر بالامارة على الشعراء المعاصرين ، بل تتعداها الى من سبقهم في العصور الماضية . فبعد ان استقامت له هذه الامارة على شعراء القرن الرابع عشر للهجرة لاغرو في امتدادها الى شعراء القرون السالفة ، اذأن هذا العصر الذي عاش فيه شوقي قد ازدهرت فيه دولة الادب في المنظوم والمنثور ازدهاراً لم تعهد له هذه اللغة مثيلاً في تاريخها الماضي ، بما اغدق عليها من شيق النثر والشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في الاجتماعيات والآداب والفنون وسائر ضروب معايش الناس حتى اذا دعوناه عصر اللغة الذهبي لانكون مغالين .

لااظن احداً يرتاب في حقيقة التفوق الذي احرزه شعراء هذا القرن على شعراء الف سنة قبله اذ ان الشعر العربي منذ مطالع القرن الخامس للهجرة بدأ فيه عهد التراخي والانحطاط في مهبط متدارج، الى ان تولاه الجمود واذعن لعوامل الاندراس التي اجتاحته بضعة قرون لم يظهر فيها الا نزر يسير من المقلدين الضعاف في مذاهب التصوف والمدح والنسيب . وبعد ان انصرم عهد ابي تمام والمتنبي والبحتري والشريف الرضي وابي العلاء المعري لاتعود تعثر في تاريخ الادب العربي على أثر للنمو والتجدد الذي هو علامة الحياة ، بل تستشعر التقهقر والتدني نحو الفناء حتى مطلع هذا القرن الرابع عشر حين بدت بوادر النهضة الادبية الحديثة وكان شوقي مرافقاً لها ومستفيداً من بواعثها السياسية والاجتماعية وحاملاً لواءها في مقدمة الناهضين بها حافظاً لنفسه الزعامة فيها الى ان لبى دعوة ربه ، وهي في أعلى مرتبة عرفها لها مؤرخوها .

اكثر الرجال في هذا الشرق العزيز يبلغون قنة مجدهم ويتكبدون سماء ازدهارهم في عهد شبابهم وكهولتهم ، ويندر بينهم من يستمر في شوطه صعداً الى دور الشيخوخة والهرم . خصوصاً اذا بلغ الدرجة العليا فوق اقرانه في سلم ارتقائه ، فيتولاه الكسل ولا يعود يرى به حاجة للجد والعمل ، بعد ان أقر له الناس بالتفوق والنبوغ . ومن أحرز البطولة الاولى في امر ما يبدأ دور تقهقره بما يستولى عليه من الفتور بعد بلوغ الغاية على حد قولهم :

اذا تم شيء بدا نقصه توقع زوالاً اذا قيل تم

اما احمد شوقي فقد افلت من هذا القيد ، وشذ عن هذه القاعدة ، وبقيت همته في صعود وقريحته في نهوض ، غير مبالية بهبوط قواه الجسمية ، وتداعي صحته الغالية ، وغير مغرور بلقب امير الشعراء ، ولا متوان عن اقتحام المشاريع الشاقة بتأليف الروايات الشعرية الكبيرة على اسلوب لم يسبقه اليه احد من شعراء العرب الاولين والآخرين . وهذه معجزاته التي انتجها ذهنه الوقاد بعد الستين تملأ دفات الدواوين وتبعث حياة جديدة في مسارح التمثيل وقاعات الغناء ومجالس الطرب ومحافل الحكمة والأدب .

لو ان غيره احرز هذه المرتبة ربما كان اكتفى بها ، فحط بعدها اليراع ، واخلد الى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الراحة والدعة ، ونام على الثقة التي نالها بجدارة واستحقاق ، ولكن شوقي رجل الجد والطموح ، ومثال العزم والاقدام ، يوم اقرّ له الناس بامارة الشعر ، أقرهم بالواجب المحتوم عليه ليبقى مستحقاً لهذا اللقب وجديرا بالاحتفاظ به ، فكان بعد بلوغه السدة اكثر نشاطاً واجرى بياناً وافعل سحراً منه قبل ان يبلغها ، واضاف الى مجموعة الشعر العربي هاتيك التحف النفيسة التي سدت فراغها ، وشغلت الخالي من رفوفها .

منذ عهد حسان والشعراء يزورون دمشق ، وينعمون باكرام اهلها وحفاوتهم وتقديرهم لاعلام الادب ، كما ان هذه المدينة الخالدة كانت ومازالت منبتاً طيباً لجهابذة المنظوم والمنثور في كل عصر ، ولكننا لانجد شاعراً غير شوقي خصها بالقصائد الخالدة ، والبسها من نتاج خياله العالي حللاً ابقى على الدهر من جنائنها وغياضها . لو جمعنا كل ماقيل في دمشق في هذه القرون الاربعة عشر لماوجدناه يقاس بمقطع واحد من نونية شوقي أو قافيته في وصف امجادها ، واستعراض تاريخها ، وايقاظ الهاجع من إباء سكانها ، ونخوة ابنائها . فهو قد اضاف الى خلودها في مطاوي التاريخ خلوداً آخر في صفحات الادب العالي والقريض الباقي ، وكان له من العطف على هذا القطر الشامي العزيز ، والحب لارجائه وقطانه ، ماجعله يعده وطناً ثانياً ويحله من نفسه في مستوى واحد مع وطنه الاول . فاذا اكبر العرب المصاب بمصرع شوقي فبلاد الشام بعد مصر اولاهم بهذا الاكبار ، واجدرهم بعرفان جميله وتخليد ذكراه بين حنايا الصدور .

يتهامس الناس في من يكون خلفاً لشوقي ويلقب بعده بامير الشعراء ، فهل اخلي شوقي مكانه ليحتله امير آخر ، ان امارة الشعر ليست منصباً ادارياً يتعاقب عليه طلاب المناصب الواحد بعد الآخر ، وانما هي عرش قائم في النفوس والقلوب ، لايجلس عليه الا من يستحقه ولا فرق بين ان يكون هذا الجالس عليه في عداد الاحياء المعاصرين ، اولاحقاً بالاموات الغابرين ، فهو لايخلي هذا العرش الالشاعر اكبر منه ، ومتى ظهر هذا الشاعر ينزل له شوقي عن تخت الامارة ، وكما جلس ابو الطيب المتنبي على هذا العرش نحو الف سنة الى ان ظهر شوقي وازاله عنه ، ربما يبقى امداً طويلاً متفرداً بهذه الامارة ، قبل ان يظهر للعرب شاعر يزحزحه عن سدة المجد التي تبوأها .

ولعل الوثبات السريعة التي يثبها العلم والادب في هذا العصر لن تدع عهد الدولة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشوقية طويلاً ، ولا بد أن يأتينا هذا الجيل الناشئ بعجائب النبوغ ومعجزات الابداع ، ويجعل حظ الشعر لا يقل عن حظ غيره من الفنون الجميلة والصناعات النفيسة فينسخ الآتي آية الماضي .

رب قائل يقول ان الذين لقبوا شوقي امير الشعراء لم يطلقوا له هذه الامارة على شعراء العرب كافة منذ نشأة الشعر الى هذا اليوم ، بل ارادوا بهذا النعت انه أشعر معاصريه فليس له ان نجعله فوق الفحول الاولين من الشعراء ، ونقدمه على المتنبي وابي تمام والبحتري وبشار والفرزدق وجرير والأخطل وامرئ القيس وزهير ولبيد وطرفة وامثالهم من الافذاذ الخالدين . غير أن الذين نعتوا شوقي هذا النعت ، لم يقيدوه بعصر دون آخر ، بل تركوه مجرداً عن قيود الأحتراز ، والمطلق يجري على اطلاقه . هذا فضلاً عن ان اصحاب هذا الاعتراض لا يسهل عليهم ان يأتونا بشاعر واحد من الذين يعدونهم . يرجح احمد شوقي في كثير من المزايا الشعرية وربما رجحه المتنبي في حكمته وامثاله والمعري في فلسفته وغيرهما بأمر آخر ، ولكن اين هذا من غزارة المادة وامتداد الشوط وسعة المواضيع ، وانطلاق الجولة في كل فن ، ولو اتسع هذا الافق للتنظير بين شوقي وافذاذ الشعراء الاقدمين واحداً واحداً ، لما عدمنا الدليل على رجحانه ، وتفوقه على كل من سلف . ولا بد أن يتصدى جهابذة الادب لهذه المقايسة ويأتونا بما فيه الغنية والقناع .

اما الآن فنهدي الى روح شوقي تحية قومه العرب الميامين به وهو الحي بينهم بشعره الخالد يسامرهم في العزلة ويؤنسهم في الوحشة .

فهو الذي اوقد النار التي خمدت ... وسلّ ستر الونى عن معشر الضاد
وايقظ الكامن المرموس من همم ... شدّوا عليها باغلال واصفاد
واطلق الجذوة الميمون طائرها ... من ريف طنجة حتى شط بغداد
لولا قصائده ما كنت منتبذاً ... غياهب السجن في اغوار ارواد
ولا طويت على الرمضاء بادية ... يهماء تخرس فيها نأمة الحادي
فلنبك شيخًا تمالينا بنضرته ... في جارة النيل او في جارة الوادي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net